﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥﴾ [الأنفال: 75]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الولايةُ مضمونةٌ حتّى لمن تأخّر إيمانُهم وجهادُهم

لَمّا بيّنَ اللّهُ ﷻ في الآية السّابقةِ الجزاءَ المُعدَّ للمؤمنين حقَّ الإيمانِ المُتّصفين بهذه الصِّفات، بيّنَ في هذه الآية أنَّ مَن تَرَكَ ما هو عليه مِنَ البقاءِ في دارِ الكُفرِ والقُعودِ عنِ الجهادِ؛ بأن هاجَرَ وجاهَدَ، لَحِقَ بالمؤمنينَ الكُمَّلِ في مُطلَقِ دَرَجَتِهِم، وإن كانوا فيها أعلى منه درجةً لسَبقِهِم إلى المعالي والمكارِمِ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾[1].

وممّا يُذكَرُ في المناسبة أنّه لمّا منعَ اللّهُ في الآيات السّابقة قبلَ ذلك ولايةَ المؤمنين للّذين آمنوا ولم يهاجروا بالصَّراحة ابتداءً، ونفى عنِ الّذين لم يهاجروا تحقيقَ الإيمان، وكان ذلك مثيرًا في نفوسِ السّامعين أن يتساءلوا: هل لأولئك تمكُّنٌ من تداركِ أمرِهم برَأبِ هذه الثُّلمة؛ فجاءَت هذه الآيةُ لتفتحَ لهم بابَ التَّداركِ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَرۡحَامِ﴾: الرَّاءُ والحاءُ والميمُ تدورُ اشتقاقاتُها على معنى الرِّقَّةِ والعطفِ والرَّأفَةِ، ومِنه: الرَّحِمُ؛ وهي صِلَةُ القرابَةِ، ثُمَّ سُمِّيَ رحِمُ المرأةِ رَحِمًا؛ لأنَّ مِنها ما يكونُ ما يُرحَمُ ويُرقُّ لَهُ مِنَ الوَلَدِ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/348.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/89.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).

والأرحامُ جمعُ رَحِم؛ والرَّحِمُ: القرابَةُ تَجمَعُ بينَ بَني أبٍ وبينَهُما رَحِمٌ؛ أي: قَرابَةٌ قريبَةٌ[1]، وأولو الأرحام: الأقاربُ، ويَصدقُ هذا الاسمُ على كلِّ مَن يَجمَعُ بينَهُم نسبٌ[2].

2) ﴿كِتَٰبِ﴾: على وَزنِ فِعالٍ مِنَ الكَتْبِ، وأصلُهُ: ضمُّ الشَّيءِ إلى الشَّيء[3].

ويُطلَقُ الكتابُ على الخطِّ والكتابةِ، كما قال اللّهُ تعالى عن عيسَى عليه السلام: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[4] [المائدة: 110].

ويُطلَقُ مرادًا به المكتوبُ، فيكون مِن إطلاقِ المصدَرِ مُرادًا به اسمُ المفعول، كقَولِهم: فِراشٌ بمعنى: مفروشٍ، وغِراسٌ بمعنى: مَغروسٍ، ولِباسٌ بمعنى: مَلبوسٍ، ثمّ أُطلِقَ على الصَّحيفة مع ما كُتِبَ فيها[5].

ويأتي (الكِتابُ) في القُرآنِ الكريم على أحَدَ عشَرَ وَجهًا[6]، والمُرادُ بِهِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يجوزُ أن يُرادَ بِهِ قضاءُ اللّهِ تعالى وشرعُهُ، أو القرآنُ الكريمُ، أو اللَّوحُ المحفوظُ[7].

المَعنى الإجْماليُّ:

حُكمُ ولايةِ مَن تأخّرَ إيمانُهم وجهادُهم، والقرابةُ أَوْلَى بالإرث

بيّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآية أنّ الّذينَ آمَنوا به سبحانه وبرَسولِهِ ﷺ مِن بَعدَ بَيانِه وِلايَةَ المُهاجِرينَ والأَنصارِ بَعضِهِم بَعضًا، وانقِطاع وِلايَتِهِم مِمَّن آمَنَ ولَم يُهاجِرْ حتَّى يُهاجِروا، وانتقلوا مِنَ المقام مع المشركين في مكّةَ إلى المقام مع المؤمنين في المدينة المنوَّرة، وشارَكوكُمْ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رحم).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (رحم).
(3) ابن دُرَيد، جمهرة اللّغة: (كتب).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/223، ونصر الهوريني، المطالع النّصريّة، ص: 41.
(5) نصر الهوريني، المطالع النّصريّة، ص: 41.
(6) ابن الجوزيّ، نُزهة الأعين، ص: 526 - 527.
(7) ابن الجوزيّ، زاد المَسير: 2/229.

الجهادَ، فأولَئِكَ منكُم في الولايَةِ؛ فلهم من حقوق النُّصرَةِ في الدّينِ مِثلُ الّذي يَجِبُ لبعضكم على بعضٍ، وبيّنَ أنّ أولي القَرابةِ بَعضُهم أَولَى ببَعضٍ في الميراثِ في حُكمِ اللّهِ تعالى مِن عُمومِ المُسلِمينَ؛ إنَّ اللّه عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلكَ عِلمُهُ سُبحانَهُ بِما يُصلِحُ عِبادَهُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصلِ السِّياق بِما قَبلَهُ:

إتـمـامُ الـكَـلامِ عَن أَصنافِ أَهلِ الإيمانِ

وُصِلَ قَولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ﴾ بِما قَبلَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لِما بينَ الجُملَتينِ مِنَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالَينِ؛ وذلكَ أنَّ كلتا الجُملَتَينِ خبريَّةٌ، وبينَهُما جامعٌ وهو الكلامُ عن أَصنافِ أهلِ الإيمانِ، وبين الجُملَتَينِ تناسبٌ؛ إذْ قَدِ اتَّفقَتا في لفظِ المُسنَدِ إليهِ (الّذينَ) وصِلَتِهِ (آمَنوا)، وقَدِ اتَّحدتِ الجُملَتانِ كذلكَ في الاسميَّةِ، وفي مقامِ التَّقسيمِ الّذي استوعبَتهُ هذهِ الآياتِ.

سِرُّ تَعريفِ المُسنَدِ إليهِ بالمَوصولِيَّةِ:

مشاركةُ اللّاحقِ للسَّابقِ في الأجرِ

عُرِّفَ المُسنَدُ إليه (الَّذينَ) بالموصوليَّةِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى نَوعِ الخَبَرِ المَحكومِ بهِ على المسنَدِ إليهِ؛ وأنَّه مِن جنسِ الرِّفعَةِ والتَّكريمِ، وفيهِ إشعارٌ بعِلَّةِ استحقاقِهم هذهِ الرِّفعَةَ في قولِهِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾، وأنَّ هذهِ المكرُمَةَ - وهي اندراجُهُم مع أهلِ الإيمانِ الحقِّ - مُسَبَّبٌ عَن إيمانِهِم الحاصلِ بَعدُ وهِجرَتِهِم وجهادِهِم مع المؤمنينَ.

سرُّ التّعبيرِ باسمِ المَوصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

كَثرَةُ مَنِ التَحَقَ بِـرَكْـبِ أَهـلِ الإيمانِ

وَرَدَ الاسمُ المَوصولُ جَمعًا في قولِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ﴾؛ للإشعارِ بِكَثرَةِ مَنِ التحقَ بأهلِ الإيمانِ الحقِّ؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/89، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 186.

مِمَّنِ اقتَدَى بِهِم في الإيمانِ، وإنْ تأخَّر إسلامُهُ عنهم، وهاجَروا، وشاركوا المُؤمِنينَ في جهادِهِمُ الكُفّارَ.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا:

تَحَقُّقُ وَصْفِ الإيمانِ والهِجرَةِ والجِهادِ

جيءَ بصِلَةِ المَوصولِ فِعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿وَهَاجَرُواْ﴾ ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾؛ للدِّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ الإيمانِ فيهم - ويكون ذكرُه هنا من باب التّمهيد؛ لأنّ الكلامَ على تأخُّرِ الهجرةِ وليس على الإيمان؛ لأنّهم كانوا مؤمنين، أمّا أمرُ الهجرة فهو محلُّ الذِّكر؛ لأنّهم هاجروا بعد هجرتكم، وجاهدوا معكم في بعض غزواتكم.

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾:

رتبةُ مَن تأخّرَ إسلامُهم وجهادُهم

ذكرَ القرآنُ الكريمُ قولَه: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾؛ للإشارة إلى أنّ أمرَ الهجرةِ والجهادِ لهم لم يكن حاصلًا في وقتِ نزولِ الآياتِ، وفي هذا دلالةٌ على أنّ أصحابَ هذه الصِّلة قسمٌ مغايرٌ للأقسام السَّابقة؛ فليس المعنى أنّهم آمنوا من بعدِ نزولِ هذه الآية؛ لأنَّ الّذين لم يكونوا مؤمنين، ثمّ يُؤمنون من بعدُ لا حاجةَ إلى بيان حُكم الاعتدادِ بإيمانهم؛ لأنّه منَ المعلوم أنّ الإسلامَ يَجُبُّ ما قبله، وإنّما المقصودُ بيانُ أنّهم إنْ تداركوا أمرَهم بالهجرة قُبِلوا، وصاروا منَ المؤمنين المهاجرين.

سِرُّ عَطفِ الهجرةِ والجهادِ على الإيمان:

عطفُ الخاصِّ على العامِّ

في عَطفِ الهجرَةِ والجهادِ على الإيمانِ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾: إطنابٌ، وصورَتُهُ: عَطفُ الخاصِّ على العامِّ؛ وذلك أَنَّ حقيقةَ الإيمانِ في الشَّرعِ: قولٌ وعمَلٌ واعتقادٌ، والهِجرَةُ والجِهادُ من جُملَةِ الأعمالِ المندَرِجَةِ تَحتَ حقيقَةِ الإيمانِ الشَّرعيَّةِ، والشَّأنُ في عطفِ الخاصِّ على العامِّ إبرازُ الاهتمامِ بشَأنِ الفردِ الخاصِّ بذكرِهِ مرَّتين؛ أُولاهُما بذكره مُندَرِجًا تَحتَ لَفظِ العامِّ، والأُخرَى: بذكرِه على سَبيلِ الانفرادِ، ففي قولِهِ

تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾ الآيَةِ إيماءٌ شَرَفِ الهِجرَةِ والجِهادِ في سبيلِ اللّهِ سُبحانَهُ.

بلاغةُ التَّرَقّي في السِّياق:

التَّرَقّي في تَعدادِ الأعمالِ الصَّالِحاتِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾ أُسلوبُ تَرقٍّ في إيرادِ بَعضِ أفرادِ الإيمانِ؛ وذلك أنَّهُ قد صُدِّرَت جملَةُ الصِّلَةِ بالإيمانِ، وهو شامِلٌ لجميعِ الدّينِ؛ لكونِ حقيقَتِهِ جامِعَةً للأقوالِ والأعمالِ والاعتِقاداتِ، ثُمَّ ذُكِرَ عملانِ جليلانِ يَندَرِجانِ تَحتَهُ وهما: الهِجرَةُ والجهادُ، وبُدِئَ بالهِجرَةِ لِما فيها مِن مفارقَةِ الأوطانِ، وذلك شاقٌّ على النَّفسِ، وذُكِرَ بعدَها الجِهادُ؛ لِما فيهِ مِن بذلِ النُّفوسِ في سَبيلِ اللّهِ تعالى، وهو أشقُّ على النُّفوسِ مِن مُطلَقِ مُفارقَةِ الأوطانِ.

دلالَةُ ﴿مَعَكُمۡ﴾:

أَهلُ الإيمانِ دَرَجاتٌ وَمَراتِبُ

المعيَّةُ في ﴿مَعَكُمۡ﴾ مِن قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾ مؤذِنَةٌ بأنَّ الصِّنفَ المذكورَ في هذه الآيةِ دونَ الصِّنفِ الأوَّلِ الّذي لم يستقرَّ في مكّةَ بعد أن هاجر منها المؤمنون، ولأنّهم لم ينالوا شرفَ الجهادِ مدَّةً منَ الزَّمانِ مع المؤمنين، وعلى هذا فالمعيّةُ دلَّت على كونِهم تَبَعًا لهم لا صدرًا[1].

دلالَةُ الفاءِ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

مَن تَأَخَّرَ إيمانُهُ وَهِجرَتُهُ لَحِقَ بِالمُؤمِنينَ السّابِقينَ في أَصلِ الإيمانِ

الفاءُ في قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ داخِلَةٌ على الخَبَرِ لتضمُّنِ الاسمِ الموصولِ مَعنى الشَّرطِ، مِن جِهَةِ وُرودِهِ بِمَنزِلَةِ الجوابِ عَن سُؤالٍ، فكأنَّه قيلَ: وأمّا الّذينَ آمَنوا مِن بعدُ، وهاجروا، وجاهدوا معَكُم فأولئِكَ مِنكُم، و(أمّا) تدلُّ على الشَّرطِ؛ إذ هيَ بمعنى: مهما يكُنْ مِن شيءٍ[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/360، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/90.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/90.

نُكتَةُ الإشارَةِ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

تَمييزُ مَراتِبِ أَهلِ الإيمانِ

اسمُ الإشارَةِ (أولَئِكَ) مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ راجِعٌ إلى المذكورينَ باعتبار الأوصافِ؛ لأنَّ الصِّفاتِ هي مدارُ الأحكامِ.

والإشارَةُ إليهم باسم الإشارةِ الدّالِّ على البُعدِ يُرادُ بهِ الاعتِناءُ بالخَبَرِ، وتَمييزُ الموصوفينَ بذلك الحُكمِ[1].

دلالَةُ (مِنْ) في ﴿مِنكُمۡۚ﴾:

أَهلُ الإيمانِ - مهما اختَلَفَت مَراتِبُهُم فيه - ولايَتُهُم للمُسلِمينَ

(مِنْ) في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ يُرادُ بها التَّبعيضُ، والضَّميرُ المجرورُ بـ (مِنْ) راجِعٌ إلى جماعَةِ المهاجِرينَ الأوَّلينَ، والمعنى: أنَّ هذا الصِّنفَ مِن أهلِ الإيمانِ الّذينَ تأخَّر إسلامُهُم مِن جماعةِ المهاجِرين الأوَّلينَ؛ أي: مُندَرِجونَ فيهم مُلحقونَ بِهِم، فتكون ولايتُهُم للمُسلِمينَ[2]، ويكون المعنى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾؛ أي: من جُملتِكم أيُّها المهاجرون والأنصار، وهمُ الّذين جاؤوا من بعدهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ فألحقهم اللّهُ تعالى بالسّابقين، وجعلهم منهم تفضُّلًا منه وترغيبًا في الإيمان والهجرة[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾:

أهلُ الإيمانِ درجاتُهم متفاوتةٌ، والفضلُ للسّابق

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بقوله: ﴿مِنكُمۡۚ﴾، ولم يقُل: (مثلكم)؛ لأنّ المِثليةَ تقتضي الاتّفاقَ في الذّات والصّفة، والمقصودُ هنا الاتِّفاقُ في الإيمانِ والهجرةِ والواقعِ، يقول: إنَّهم هاجروا بعد المهاجرين السّابقين؛ فكان التّعبيرُ بـ(منكم) هو الأوفق ليُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه ؛ فيُعطي للسَّابقين حقَّهم في الأوَّليّة المُطلقة، وليَدُلَّ على أنّ مرتبةَ هؤلاء دونهم؛ لأنّهم أُلحقوا بهم، والمُلحقُ به أصلٌ، وهؤلاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/90.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/90.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/38.

فرعٌ، والأصلُ مقدَّمٌ على الفرع، وفي جَعْلهم منهم هنا في مَوضِع التّكريم والتّشريف تفضُّلٌ منَ الله عليهم.

بلاغةُ الالتفاتِ في الآية:

أسلوبُ الالتفاتِ فيه تشريفٌ

وجّهَ اللّهُ ﷻ الخطابَ إليهم بطريق الالتفات لتشريفِهم ورفعِ مكانتِهم، حيث كان أسلوبُ الغيبةِ في أوّلِها، ثمّ انتقل إلى أسلوب الخطاب[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالواو في قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾:

ولايـــةُ أولي القُربى قائمةٌ بنفسها

آثرَ التّعبيرَ بالواو دون غيرها؛ لأنّها عاطفةٌ؛ فعُطِفَت هذه الجملةُ على ما قبلها، ولا يلزمُ من ذلك العطف الاتّحادُ بين المعطوف والمعطوف عليه، ولكنَّ وقوعَ هذه الآية إثرَ التّقاسيم السَّابقةِ للمؤمنين في زمنِ النّبيِّ ﷺ يُؤذِنُ بأنَّ لها حظًّا في إتمامِ هذه التَّقاسيمِ، وعلى هذا جامعُ العطفِ بينهما هو أمرُ الولايةِ الّتي تعدَّدَت أشكالُها بين ولاية النُّصرةِ وولاية الإرثِ وولاية الأرحام؛ فكان عطفُ هذه الآية على ما قبلَها للدّلالة على أنّ ولايةَ الأرحامِ قائمةٌ، وأنّها مُرجِّحةٌ لغيرها منَ الولايات[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بكَوْن أُولي الأرحام بعضهم أولى ببعض:

ميـــراثُ ذوي الأرحـــام، ممَّا قرَّرته الشَّريعة

التَّعبيرُ بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ يدلُّ على ثبوت الولاية، ولذلك تمسّكَ أصحابُ أبي حنيفةَ بهذه الآية على توريث ذَوي الأرحام، وإن كان ذلك ليس محلَّ اتّفاق؛ لأنّ البعضَ يرى أنّ هذا الحكمَ قد نُسِخَ بآياتِ أحكامِ الميراث.

سِرُّ التَّعبيرِ بصيغة التَّفضيل ﴿أَوْلَىٰ﴾:

تـفـاضـلُ ذوي الأرحـــام قُـربًـا وبُعْدًا

آثرَ التّعبيرَ بقوله: ﴿أَوْلَىٰ﴾ للدّلالة على أنّ الولايةَ لذوي الأرحام لا تُعتبَرُ إلّا بالنِّسبة لمَحَلِّ الولايةِ الشَّرعيّةِ؛ فأولو الأرحام أَولى بالولاية

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/38.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/91.

ممّن ثبتَت لهم ولايةٌ تامَّةٌ كالمهاجرين والأنصار، أو ناقصةٌ كالّذين آمنوا ولم يُهاجروا في ولاية النَّصرِ في الدّين، إذا لم يكن دونَها مانعٌ من كُفرٍ أو تَركِ هجرةٍ. فالمؤمنون بعضُهم لبعض أولياءُ ولايةَ إيمانٍ، وأولو الأرحامِ منهم بعضُهم لبعض أولياءُ ولايةَ النَّسبِ[1].

المجازُ في تركيب ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾:

فَطَرَ اللهُ تعالى العِبادَ على المَيلِ إلى أقارِبِهم

كتابُ اللّهِ تعالى في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ قضاءُ اللّهِ وشَرعُهُ، والكِتابُ مَصدَرٌ، يَجوزُ أن يكونَ باقيًا على أصلِ دلالَتِهِ المصدريَّةِ، ويجوزُ أن يكونَ بمعنَى اسمِ المَفعولِ؛ أي: المكتوب، وهو على هذا مَجازٌ مرسَلٌ بعلاقةِ التَّعلُّقِ الاشتقاقيِّ.

سِرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾:

الكتابةُ أشدُّ المواثيق، وأثبتُها حجةً، وأقواها دليلًا

آثرَ التّعبيرَ بقوله: ﴿كِتَٰبِ﴾ على قضاء اللّه وشرعه للدّلالة على ثبوتها وعدم تغييرها؛ لأنّ العربَ إذا أرادوا توكيدَ عهدٍ كتبوه للتّوثيق، وهذا ما استعملَه القرآنُ الكريمُ في كثيرٍ منَ الأحكام مثل: أمر الصّيام؛ فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، وفي أمر القِصاص؛ قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ ونحو ذلك منَ الأحكام.

سرُّ تقييد أوليّةِ أُولي الأرحامِ في كتاب الله:

تعظيمُ المنصوصِ عليه في كتاب الله

قُيِّدَت أوليَّةُ أولي الأرحام بأنّها في كتاب اللّه؛ للدّلالة على أنّ ذلك حكمٌ فطريٌّ، قدَّرَه اللّهُ، وأثبَتَهُ بما وضعَ في النَّاسِ مِنَ المَيلِ إلى قَراباتِهم... "فلمّا كانَت ولايَةُ الأرحامِ أمرًا مُقرَّرًا في الفِطرَةِ، ولم تَكُنْ ولايَةُ الدِّين معروفةً في الجاهليَّةِ بيَّنَ اللّهُ أنَّ ولايَةَ الدِّين لا تُبطِلُ ولايةَ الرَّحِمِ إلّا إذا تعارَضَتا؛ لأنَّ أواصِرَ العقيدَةِ أقوَى مِن أواصِرِ الجسَدِ"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/92.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/92.

دلالَةُ الإضافةِ في ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾:

تَفخيمُ شَأنِ أَواصِرِ الرَّحِمِ

إضافةُ الكِتابِ إلى الاسمِ الأَحسَنِ (اللهِ) في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يُقصَدُ بها تَعظيمُ الكِتابِ وتَفخيمُهُ، ولازِمُ ذلكَ تفخيمُ شَأنِ هذا الحُكمِ المَكتوبِ.

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ في الآيةِ قيد التفسير:

دِقَّةُ البَيانِ القُرآنيِّ في الإجمالِ والتَّفصيلِ بِحَسَبِ مُقتَضَياتِ الحالِ

قال اللهُ ﷻ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [الأحزاب: 6]، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، ووجهُ الفَرقِ بينَهُما: أنَّ آيةَ الأحزابِ خُصَّت بقولِه: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ دونَ سورةِ الأَنفالِ؛ وذلكَ لأنَّ آيةَ الأنفالِ صُدِّرت بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ﴾، فلمّا كانَ الخطابُ للمهاجِرينَ والأنصارِ الّذين سبقَ ذِكرُهُم قَبلُ ناسَبَهُ الاكتفاءُ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ دونَ التَّنصيصِ على كونِهم مؤمِنينَ ومهاجِرين، أمّا آيَةُ الأحزابِ، فقد صُدِّرت بقوله ﷻ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾، فلمّا ذُكِرَ المؤمِنونَ على سبيلِ الإجمالِ، وأُريدَ تقسيمُهم إلى مهاجِرينَ وأنصارٍ، ناسبَهُ التَّفصيلُ في موضعِ سورةِ الأنفالِ هنا.

سِرُّ تَعريفِ المُسنَدِ إليه (الله):

عِظَمُ أَوصافِ اللهِ تعالى وأَفعالِهِ

جاءَ المسندُ إليهِ (اللهُ) معرَّفًا بالعلميَّةِ في قولِهِ سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ للإيماءِ إلى عظَمَةِ علمِ اللهِ تعالى المُحيطِ بكلِّ شيءٍ؛ وذلكَ لأنَّ الاسمَ الأحسَنَ (اللهَ) جامعٌ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، وذلك مُشعِرٌ بعظمَةِ أوصافِهِ وأفعالِهِ.

وأُكِّدَ ذلكَ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجُملَةِ زيادَةً في توثيقِ هذا المَعنَى وتقويَتِهِ.

سرُّ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إظهارٌ في مقامِ

الإضمارِ، وذلك أنَّ مقتضَى الظّاهِر أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾؛ لتقدُّمِ التَّصريحِ بالاسمِ الأحسَنِ (اللهِ) في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، ونكتَةُ الإظهارِ زيادَةُ المهابَةِ بالتَّصريحِ بالاسمِ الأَحسَنِ الجامعِ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، وفيه أيضًا المبالغَةُ في بيانِ إحاطَةِ علمِ اللهِ تعالى.

المُبالغةُ في بَيانِ إحـاطَـةِ عِـلـمِ اللهِ تعالى بكُلِّ مَعلومٍ

وفي التَّصريحِ بالاسمِ الأحسَنِ أيضًا إخراجُ الجملَةِ مخرجَ التَّذييلِ الجاري مجرَى المثَلِ؛ إذ لو أُضمِرَ - كما هو مُقتَضى الظَّاهرِ - بأن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (إنَّه بكلِّ شيءٍ عليمٌ) لكانَ ذلكَ مِن قَبيلِ التَّذييلِ غيرِ الجاري مَجرَى المثَلِ.

بَراعَةُ التَّذييلِ في آخرِ الآيةِ:

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ جارٍ مَجرَى المثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادَةِ، وعدمِ احتياجِهِ إلى ما قَبلَهُ في فَهمِ تمامِ المرادِ منه.

تَـقـريـرُ أَولَـويَّـةِ ذَوي الأَرحـامِ بَعضِهِم بِبَعضٍ فيما يُعتَدُّ فيهِ بِالوِلايَةِ

وهذا التَّذييلُ مُؤذِنٌ بالتَّعليلِ؛ ولذا فُصِلَتِ الجُملَةُ عمّا قبلَها، والمقصودُ من جملةِ التَّذييلِ: تقريرُ أولويَّةِ ذوي الأرحامِ بعضِهِم ببعضٍ فيما يُعتَدُّ فيه بالولايَةِ، ما لم يَمنَع من ذلك مانعٌ مُعتبَرٌ شَرعًا[1].

مُناسبةُ الفاصِلَةِ لِمَضمونِ الآيَةِ:

مِن بَلاغةِ القُرآنِ الكَريمِ مُلاءَمَةُ مَـقـاطِـعِ الآيِ لِمَطالِعِها

خُتِمَت هذه الآيةُ باسمِ اللهِ تعالى: العَليم، فقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، وذلكَ لكونِ صِفَةِ العِلمِ ملائِمَةً لنفوذِ هذهِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ[2].

بَراعةُ خَتمِ السُّورَةِ:

خُتِمَت سورَةُ الأنفالِ بقولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، وذلك في غايَةِ البراعَةِ؛ وذلك لكونِ السُّورَةِ اشتمَلَت على أحكامٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/92.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 2/557.

كثيرةٍ في الولايةِ العامَّةِ والخاصَّةِ والعهودِ وصلةِ الأرحام، وما قبلَهما ممّا سبق من أحكام القتالِ والغنائمِ وقواعدِ التَّشريعِ ونحو ذلك من أصول الحكمِ المُتعلِّقةِ بالأنفس ومكارمِ الأخلاقِ، كلُّ ذلك عن علمٍ واسعٍ محيطٍ بكلِّ شيءٍ؛ لذلك كان الخَتمُ بصفةِ العِلمِ مِن أنسبِ ما يكون؛ لكونِ صفةِ العلمِ جامعةً ذلكَ كُلَّهُ ومحيطةً بمبادئِهِ وغاياتِه[1].

مِـن دَقـائِـقِ الإعجازِ القُرآنيِّ بَـراعَـةُ خَـتـمِ سُوَرِهِ

التَّناسُبُ في سورَةِ الأَنفالِ:

في تناسُبِ مطلَعِ السّورَةِ ومقطَعِها وَجهانِ[2]:

أحدُهُما: أنَّ السُّورَةَ صُدِّرَت بقولِ اللهِ ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾، ثُمَّ ذُكِرت معركَةُ بَدرٍ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ﴾، ثُمَّ خُتِمَتِ السّورةُ بذكرِ معركَةِ بدرٍ، وما ترتَّب عليها مِنَ الغنائمِ والأسرَى، في قولِهِ جلَّ وعلا: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾، ويندرِجُ في ذلكَ الجهادُ، وهو ما خُتِمَت به السُّورَةُ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْۚ﴾.

تَناسُبُ مَقاطِعِ سـوَرِ الـقُـرآنِ الـكَـريـمِ مع مَطالِعِها

والآخَرُ: أنَّ اللهَ ذكرَ في أوَّلِ السُّورةِ المؤمنينَ حقًّا، وذكرَ جُملةً من أوصافِهِم، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، ثُمَّ قال فيهِم: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، وذكَرَ في آخرِ السُّورةِ أهلَ الإيمانِ مِنَ المهاجرينَ والمجاهدينَ والّذين آوَوا ونصروا، وقال فيهم: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

وبناءً على ذلك فالتَّناسبُ واضحٌ بين مَطلعِ السُّورةِ وخاتمتِها،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/360، ورضا، تفسير المنار: 10/103.

(2) فاضل السّامرّائيّ، التّناسب بين السّور في المفتتح والخواتيم، ص: 18 - 19.

وهذا دليلٌ واضحٌ على أنّ القرآنَ مُعجِزٌ في ترتيبِ آياتِه وتناسُبِ معانيه؛ فأوّلُ السُّورةِ مربوطٌ بخيوط الإعجازِ في آخر السُّورةِ، ولو انقطعَ ذلك الخيطُ لانفصلَت لُحمةُ التَّعبيرِ؛ فسبحانَ مَن وصلَ أوصالَ السُّورةِ مشتملةً على بِنْيتِها اللُّغويَّة الّتي تشابكَت معانيها مع تعدّد أحكامِها، وتنوّع أصنافِ النَّاس فيها، وتعدُّدِ زمنِ النُّزولِ؛ فالسّورةُ لم تنزلْ دفعةً واحدةً، ومع ذلك فمعانيها متلازمةٌ، يخرجُ معنى الآية الأخيرةِ من رَحِم معنى الآيةِ الأولى.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»